

الصدى اللعين

بقلم طلال توفيق أبوغزاله

القصة الفائزة بجائزة قصة القصيرة في المسابقة التي أجزاها المجلس
الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية المتحدة بين
طلاب الجامعات والمعاهد العليا بالبلدان العربية
عام 1958

الصدى اللعين

... ولم تلبث أن أطلت من بعيد. كانت تسير في تان واتزان مطرقة برأسها إلى الأرض
إطراق الغارق في بحر من التفكير. وغازني تمهلها في المسير إلى لقياي كأنها لا تكثرث لما
انتظرها به من شوق.

إنها الفتاة التي أحب... ينقلب الغيظ إلى حيرة. فهذه الإنسانية لم تكن مبعث غيظ في يوم من
الأيام. وأصبحت أعتقد أنها لا تفيض إلا بالحب... والسعادة... والخير. لذلك أصبحت حائراً
ينتابني شعور بالغيظ ولكنني أجد مبرراً، يحول بيني وبين هذا الشعور. وزاد كل ذلك من لهفتي
لأن أحدثها عن الشوق ... عن حلمي الحبيب. ورحت أستعيد قصة لقائنا الأخير أشغل بها
نفسي عن ألم الحيرة ولوعة اللهفة.

.....

كان والدي يحدثني برؤية صاحب التجربة العارف لما يجري، وكنت أصغى إليه على انه
يتكلم برؤية جيل قديم ... فتى يابى أن تطعن آمال أمته... ولو بأفكار أبيه ... حاورته :

قال لي "قد تتهمني، يا بني، بالرجعية والتشاؤم والتخاذل، غير أن الأيام ستثبت لك خطأ ظنك
وتريك ما لا تراه عينيك. إنك تجرد من الوطنية جيل والدك وتثقل عليه اللوم، وما كنت لتفعل
ذلك لو لم تنظر إليه بمنظار عاطفة جوفاء تدعوها (وعياً) وهي أبعد ما تكون عن الوعي. إن
الجيل الذي تهاجمه يا بني غير متخاذل وليس خائناً بل هو جيل تخطي حدود الوعي العاطفي
إلى الوعي الواقعي ذلك أن الوعي العاطفي ليس إلا تعلقاً بحلم كبير تسلط عليه الأيام أنوارها
فينكشف... وتخبو العاطفة.

تنفس بعمق وتابع ليقول "الإقرار بواقع من المحال أن يتغير تسمية رجعية. ولكن بربك قل لي
ما التحرر والثورة والتقدمية؟ إنها أداء فارغ بكينونة ما نتمنى أن يكون... إنها الإصرار على
تجاهل الواقع والتشبث بحلم عاطفي واه. الواقع العربي حقيقة بقيت كما هي أجيالاً طويلة... ولا
يبدو أنها ستتغير.

"أما الواقع الذي تنشده وتتمناه وأنا أيضاً أتمناه فلن يكون.

امسك بيدي وهز برأسه وهو ينظر إلي، اعتبر هذا تشاؤماً إن شئت، أما أنا فأدعوه واقعية. حلمك الكبير أمنية لنا جميعاً... أنا وأنت وكل الشعب... والفارق الوحيد هو أنني إدرك أنه مجرد أمنية بينما تظنه أنت واقعاً سيكون او يتحقق.

يا بني "والشعور بالمسؤولية! لمن هم في عمرك وتجربتك وخبرتك يعني فقط التعلق بالخيال دون الواقع، أو هو التحمس للا شيء، أو لعمل لا طائل تحته، كمن يقضي النهار جرياً وراء ظله. إما أن يدرك المرء حقيقة الظل ويكف عن متابعته فذلك تخل عن المسؤولية وتهرب من الواجب".

وشعرت برغبة ملحة في الكلام. وفكرت بأن أواجهه برد قوي صريح... ولم أجرؤ. ونظرت إلى صحن السجائر أريد أن أسحق عقب سيجارة كان يبعث دخاناً يرسم "خيالات" لا تلبث أن تتبدد في الفضاء... وجبنت ثانية. إنها تقاليد الأسرة! عندما يتحدث الكبير عليك أن تتصت وتستمع، التقاليد التي شعرت أنها تريد أن تخرسني أمام هذا السيل العارم من التحامل والمغالطات كما اعتقد. ووجدتني بحاجة لأن أثور... لأن أحطم التقاليد مرة واحدة... من أجل أن أدافع عن "حلمي الكبير".

منذ أربع سنوات اغتصبت فلسطين، فكفر والذي بكل شيء... ناعياً الأمة ومستقبلها. وانقضت السنوات الأربع العجاف دون أن يشع بصيص أمل مهما كان ضئيلاً. كانت أوضاع الوطن تسير من سيئ إلى أسوأ... وقصة تشريد شعبنا العربي في فلسطين تصبغ حياتنا بلون أسود قاتم. كنا ننظر إلى خيام البؤس كمن يتحدى إرادتنا ويطعن كرامتنا فلا نملك أكثر من أن نعرض عنها بأسى وغيظ. كل خيمة نصبت لنازح هنا كانت وصمة عار في جبيننا نحن عرب لبنان. وانتفض الشعب في لبنان ليمحو وصمة العار فصدمة الواقع المرير... وارتد قانطاً يائساً. كان الظلام المخيم على أرجاء الوطن العربي شديد الحلكة. وتعاضم اليأس حتى أوشك أن يتحول إلى استكانة وقبول بالواقع البغيض المقيت.

لذلك كانت ثورتي. فهذا اليأس القاتل كان أول ما يهدد حلمي الكبير بالتلاشي والضياع. وأصبحت أعتقد أن البوح بالحلم جريمة جريمة... الجريمة الوحيدة التي لا تغتفر. وحاولت جاهداً تبرئة والدي من تلك "الجريمة" فرحت أختلق لمواقفه الأعدار... وفشلت. ذلك أن فكرة فلسطين لن تعود" لا يمكن تبريرها من اي كان. وأردته أن يقولها صراحة لا ثور... لا حطم التقاليد... لا طلق الكلمات الحبيسة في صدري وصدر أخوتي الصامتين. وسألت:

- وفلسطين... هل تعود؟

قلتها بنبرة كلها تحد واستنكار. واضطرب جو الغرفة، وعلقت الأنفاس، وأحسست بالنظرات من كل جانب تخترقني... نظرات والدتي وأخوتي الصغار. كانت نظرات واجفة متوسلة ترقب الجواب. وتكلم والدي...

- وهل يدل واقع أمتنا على ذلك؟

- ولكننا نأثرون على هذا الواقع عازمون على قلبه.

- لقد ثرنا عليه أجيالاً طويلة فأني نصر حقنا غير ضياع فلسطين؟!!

- ولكنها ستعود رغم أنف الدهر.

- ذلك حلم

- ولكنه سيتحقق

- بل لن يتحقق

وضاقت بي الدنيا. وتاججت الثورة في داخلي واشتدت... ثم انقلبت إلى نقمة. ولم أجد من أصب عليه نقمتي غير نفسي... ولم أحتمل. فغادرت من مكاني بعيداً عن والدي، عن الجو الذي كاد يخنقني. اسرعت خطاي نحو الشاطئ كي أغسل فيه نقمتي ولكنني لم أستطع الهرب. أن الفكرة اللعينة كانت تلاحقني... والصدى اللعين كان يتعالى مدوياً "فلسطين لن تعود".

وفجأة تذكرتها... تذكرت وفاء. ونسيت الشاطئ، والصدى اللعين، النقمة على نفسي. واتجهت لأقرب غرفة هاتف فكلمتها، وطلبت إليها أن تقابلني في الحال. وضعت سماعة الهاتف وأغلقت باب الغرفة وخرجت. التفت إلى الرجل الجالس هناك فوجدته يبتسم... وابتسمت دون أن أفهم شيئاً. وقطعت الشارع... ثم تذكرت أنني لم أدفع أجرة استخدام الهاتف. فلما عدت إليه وجدته مازال يبتسم فأدركت أنه قد فهم.

والنتقينا بعد دقائق. جلست أتأملها... فإذا السعادة تغمرني والاطمئنان يملأ كياني. كان كل ما فيها جميلاً ساحراً: شعرها الأشقر المنسدل، عيناها الخضروان الحالمتان، وذراعها البضة الناعمة الملقاة على الطاولة برفق ودلال. كانت أكثر من جميلة... فالدفق الروحي الهولي الفائض عنها الممزوج بالجمال.. هو عالم فوق الوصف... ولم أكن أحبها لذاتها الجميلة فقط بل لتلك الروح التي تخلقها في وأنا إلى جوارها. إنها لم تكن مجرد "هي" بل كانت هي.... وأنا... والوجود كله... كانت إنساناً يفهمني.

بقيت برهة أهيم في بحر عينيها. وتحرك في الفضاء أمام ناظري بنانها الرقيق يداعبني كي أفيق من حلمي الحبيب... وافقت أردد:
"لن يتحقق الحلم الكبير"
وتساءلت بهلع واستغراب: "كيف تقول ذلك؟"
وأجبتها: "إن والدي هو من قال ذلك"
أبت وفاء إلا أن تبقى على بصيص من أمل فراحت تسألني: "وهل كان جوابه قاطعاً؟"
فأومأت رأسي مجيباً: "ولم يكتف بذلك بل حمل على وعلى حلمي الحبيب".
وسمعتها تتمم بأسى وحسرة: "لن يتحقق الحلم... ولن نسعد بالزواج"

وصدمتني الحقيقة البغيضة. لقد أدركت لأول مرة أنها لا تفهمني... إنها تظن أن لا حلم إلا حلم الحب الصغير. وتبخر "الدفق المعنوي" في لحظات وتحولت "الإنسانة التي تفهمني" إلى قطعة باردة لا صلة لها بي. واضطرب الجو... وشعرت بالنقمة تملأ كياني.... والصدى اللعين عاد من جديد. ومرة أخرى... لم أجد هدفاً للنقمة سوى. وأردت أن أطفئ من نار النقمة التي أخذت تتتابني فتكلمت... تكلمت بصراحة ودون رؤية أو تفكير.

أفهمتها أن لدى حلماً آخر... حلماً كبيراً... حلماً يمثل أمانى أمة وإرادة شعب. وحدثتها عن هذا الحلم عن حتمية وضرورة تحقيقه ، عن صعوبة تجسيده وما يعترضها. ثم وصفت لها كيف أنني قد طعنت اليوم في حلمي الكبير مرتين: مرة بيد والدي وأخرى بيدها هي، وكيف أنني لم أحتمل أن يطعن حلمي فنقمت، ليس على والدي ولا على الفتاة التي أحببتي، بل على ذاتي. لقد وجدت نفسي ناقماً حاقداً ما بين جيل تخلي عن الحلم الكبير وجيل شغله حلم صغير. وأصبحت أخشى على حلمي الكبير أن يتلاشى فشغلت به ونسيت كل شيء... حتى ذلك الحب الذي "يملاً دنياي".

وتركتها، وتذكرت الشاطئ فهرعت إليه هرباً من نفسي... ومن الصدى اللعين. ووصلت الشاطئ. ورحت ألتقط أنفاسي بعد أن أخرس هدير البحر الصاخب ذلك الصدى اللعين.

أخذت أرقب الأمواج تتكسر على الشاطئ الرملي العريض. كانت تتدافع متتالية دونما كلل أو ملل حتى إذا ما تكسرت على الرمال الصفراء المتلألئة غسلتها من ادران اليابسة. وأبصرت عند أقصى مبلغ الموج بقعة سوداء قاتمة تلطخ نقاوة الإصفرار المتلألئ. ثم أدركت أن هناك صراعاً

بين الأمواج المتدافعة وتلك البقعة التي عكرت صفو الرمال. وتتالت الأمواج... وحاولت كلها أن تمحو البقعة القاتمة... فعجزت.

بقيت قطعة السواد تلطخ الرمال. وتأملتها... وكأن البحر هدأ واستكان أو يئس... فبدت لي فخورة متحدية. وشعرت بدافع قوي لركلها بقدمي إلى البحر. ولم أكد أخطو نحوها حتى لطمتني موجة عارمة ألقّت بي على الرمال. وانحسرت الموجة. والتفتت من حولي أبحث عن البقعة فلم أجدها... لقد ابتلعها البحر.

وفجأة سكن الكون وتلاشى كل صوت... حتى الهدير الصاخب الذي أخرج الصدى للعين... عرفت كيف يتحقق الحلم الكبير. وسمعت صدى جديداً يأتي من بعيد: "سيتحقق الحلم... وفلسطين سوف تعود" وجعلت أركض فرحاً أريد الاقتراب من ذلك الصدى الحبيب.

ابتعدت عن الشاطئ وأسرعت إلى حيث كنت واقفاً قبل دقائق... فلم أجدها. واقتربت من الطاولة التي كنا نجلس إليها ووضعت كفي حيث كانت "الذراع البضة الناعمة ملقاة برفق ودلال"... فشعرت "بالدفق المعنوي الفائض عن ذاتها" يدب في من جديد. بقيت كذلك برهة أفقت بعدها على النادل وهو يمسح الطاولة من ماء البحر الذي خلفته يدي. ونظرت إلى ثيابي المبللة... ثم إلى النادل... وابتسمت ولم أخجل.

كنت لا أزال أسمع الصدى الحبيب وأنا أتجه مسرعاً إلى الغرفة التي كاد يقتلني جوها منذ زمن قصير. ومررت برجل غرفة الهاتف وحييته ففغر فاه وهو ينظر إليّ... ولم يرد. وتأملت مبتسماً نظرات السخرية والعجب التي قابلني بها الناس، فسخرت من سخريتهم وعجبت لعجبهم. بل لقد كنت في شغل شاغل من ذلك... كنت سعيداً بحلمي الكبير. إلا أن ذلك الحلم كان سعادة شعب بكامله وفرحة أمة بأسرها. وودت أن يشاركني الشعب النبيل هذه الفرحة وتلك السعادة فرحت أحبي كل من رأيت وأبتسم له حتى حامت حول عقلي الشكوك.

دفعت باب المنزل والصدى الحبيب مازال ينساب إلى أذني في لحن جلي رقيق. وعجبت من والذي... وأمي... وأخوتي كيف لم يسمعوا لحن الحبيب! وجلست أمام والدي أؤكد له من جديد:

- "سنحقق الحلم الكبير... وفلسطين سوف تعود"

-

فحقق في مشدوها وهز رأسه... ولم يصدق، حتى أخوتي... لم يصدقوا ذلك. ونظرت أُمي إلى الثياب العالقة بجسدي فضربت كفاً بكف... وانحدرت على خدها دمعة.

ولم أحزن. كنت أعلم أن اللحن الحبيب... لحن الحلم الكبير... سوف يصل إلى أذانهم. عندئذ يصدقني أخوتي، وينظر إلى والدي بثقة واطمئنان، وتتحدّر على خد أُمي دمعة أخرى... دمعة الفرح .

ومرت أيام ثلاثة قضيتها وحيداً في سعادتِي أنتظر وأنتظر... حتى أطل صباح يوم رابع. تركت فراشي وأسرعت إلى الغرفة المجاورة أستجلي الخبر. كانوا حول المذيع... عيوناً تبرق ببريق الأمل... وقلوباً تنبض بالعزم والثقة. وجلت ببصري على الجميع... وعلت أصوات أفراد الأسرة يتسابقون لإبلاغي أعز أمنية. "ثورة في مصر"... وابتسمت. ونظرت إلى والدي فوجدته يبتسم مردداً:

- "نعم يا ولدي... سيتحقق حلمنا الكبير... ولسوف ترجع فلسطين".
فهزرت رأسي وصدقت.

ودوى الصدى الحبيب في كل مكان، ودخلت السعادة كل قلب لقد عاد الشعب الأبوي "يصنع التاريخ من جديد... وتلاشت إلى الأبد مقولة فلسطين لن تعود" وسرى في أمتي دفق الثقة والتصميم... الثقة بالحلم الكبير، والتصميم على تحقيقه. أصبح الشعب... كل الشعب... يعد نفسه لمعركة الثأر المباركة. والدي... وأخوتي... ورجل غرفة الهاتف... والنادل. لم يعد في أمتي من يكفر بالحلم الكبير.

وعادت الي رغبة جامحة للحب. ذلك أن الحب لكي يكبر فينا ويقوى يحتاج الى أمل وثقة بذلك الأمل. فإذا ما راودت المرء شكوك بمستقبله ومصيره ونفسه فانه سيحتاج الثقة حتماً قبل الحب. ثم أن الحب هو قتل الأنانية، إنه انفتاح الذات كي تتسع للغير. وأداء الواجب القومي يعني كذلك قتل للأنانية لأنه يذيب الفرد في المجموع والمواطن في الأمة. لذلك، ما أن استشعرت طمأنينة الثقة ولذة العمل حتى وجدت نفسي بحاجة للحب من جديد فأسرعت أطلب الفتاة التي حطمت "حلمها الصغير" كي أبنيه من جديد.

.....

مر كل ذلك بخاطري وأنا أرقبها تقبل من بعيد. وجلست أمامي... بشعرها وعينيها ويدها البضة... وغمرني دفقها المعنوي. نظرت إلى وجهها المشرق وهمت في ابتسامتها الساحرة... ولم

أتكلم. وجذبنى إليها شيء جديد ترددت في تصديقه. لقد لمحت في نظراتها مسحة من أمل وثقة. وعجبت من أمر هذه الفتاة! أحطم حلمها... أتركها حانقاً... أنساها أياماً... فلا تنتقم ولا تحقد بل تقبل راضية مسرورة.

وأصغيت لبريق الأمل المنبعث من العينين الخضراوين يروي قصة الحلم الكبير الذي أخذ يتحقق. وأردتها أن تسعد... أن تعيش قصة الحب بأحلامه وآماله، فناجيتها:
- وفاء... أن أحلام حبنا ستتحقق!

وصمت لحظة أرقب النسيم يداعب سيل شعرها المنسدل. وأقترب الوجه الجميل... فوق المنضدة... وأسند إلى كفها الصغير... وتهادى صوت عذب رقيق:
- "حدثني أولاً... عن الثورة المجيدة".

وسمعت حشجة الصدى اللعين... وابتسمت... وحدثتها عن الثورة وعن الحب أيضاً. لقد آمنت الامة بالحلم الكبير، ولم يعد في أمتي من يشغله حلم صغير.